في ذكرى الرحيل السنوية العاشرة

قليل من القدرة على الاعتراف كان سيكفي. كنت سأفتح رسائلك على قلبي وأفتح قلبي على موتك باعتباره حقيقة في لغة الباحثين والمؤرخين. ولأنني لست باحثا أو مؤرخا ولأنني لا املك القدرة على قليل من الاعتراف ازاء أسمك الذي هو راشد، راشد حسين، راشد حسين محمود، راشد حسين محمود اغبارية، فلن أفتح قلبي الا على الحقيقة الوحيدة التي أعرفها الآن، حقيقة حياتك. ولست بحاجة الى مراودة التذكار لأنك ماثل كما كنت دائما، منذ العام الجميل ١٩٥٥، ففي ذلك العام كان تعارفنا في مدرسة الناصرة الثانوية البلدية. لا أذكر التفاصيل لكنني أذكر الأسماء والوجوه التي كانت معنا ومن حولنا: شكيب جهشان، طلعت صالح، فرج نور سلمان، أحمد ريناوي، فهد ابو خضرة، سمعان دعيم، دياب خوري .. وثمة أسماء ووجوه أخرى تذكرها أنت كما أذكرها. وكنت نجما مدرسيا اذا إجاز التعبير، نجما بقامتك الفارعة وخصلات شعرك المنفلتة دائما وابدا على قسماتك الدقيقة السمراء بعينيك الحزينتين دائما وأبدا فوق ابتسامة منضبطة ينسجم فيها الكبرياء والتواضع والألفة والثقة بالنفس بحيث أستطيع اليوم من بعيد بعض الشيء أن أنشيء حوارا جادا بين ابتسامة راشد حسين التي أعرفها وابتسامة الجيوكاندا أو الموناليزا التي حاولت أن

أعرفها. وسأحاول أن أقارب بين صورتك على بطاقة النعي ولوحة دافنشي على جدار اللوفر. وانني لأتساءل عما يمكن ان يبقى لنا نحن اخوتك مهاويس القصيدة من مثل هذا الحوار العقيم. لا ليس عقيما لأن غموض الموت غير المبرر يظل حافزا لنا، لا لممارسة الذكرى بل لممارسة الحياة. وأستطيع اليوم أن أذكر انبهارنا نحن أطفال الشعر آنذاك بفتى الشعر الذي هو أنت يوم شحنت الجمهور في سينما أمبير هنا في الناصرة، بشحنة تتراوح بين الكهرباء والحلم حين أنشدت

من أسيا أنا من بلاد الحب والدم والأغاني
بلد الرجال الثائرين على مماطلة الزمان

كان صوتك عميقا بنبرات العافية واليقين وكان شعرك ساخنا سخونة الدم والغضب واللوعة والأسى لدى شعب دمه مستباح وغضبه محظور ولوعته مقننة وأساه مرصود. ولم نكن آنذاك زملاءك الا مجازا. كنا نتلمس سراديب القصيدة وكنت أنت المغني. مع ذلك أصبحنا أفراد أسرة كثيرة الأبناء الأخ الأكبر هو راشد ومن حوله اخوته الصغار محمود وسالم وسميح ومن حولهم أبناء عمومة وخؤولة ما شاء الله.. وكم كنت ذكيا حين لاحظت أن أحد هؤلاء الاخوة يتخلى عن اسم عائلته ويكتفي باسم جده حتى لا يقرن أسمه باسمك. قلت له مداعبا: تبتعد عني لتجد نفسك. حسنا الله يسهل عليك! فرد بنزق بريء طالما غفرته له: لا أريد أن أكون أخاك الصغير. أريد أن أكون زميلك!

وتتابع الأسرة حياتها في الحياة وفي الشعر معا وتظل أنت النجم في ساحة كفر ياسيف حين أنشدت:

اليوم جئتُ وكلنا سجناءُ فمتى أجيء وكلنا طلقاءُ

ويظل صوتك هو الصوت وأنت تردد:

الله أصبح لاجئا يا سيدي صابر اذن حتى بساط المسجد

وانت تردد:

سنُفهم الصخر إن لم يفهم البشرُ أنّ الشعوب اذا هبت ستنتصرُ

وفي كل موقف، وعلى كل منبر كنتما معا: أنت الشاعر وأنت الانسان، وفي كل موقف وعلى كل منبر كنت ترحب باخوتك الباحثين عن ينابيع الشعر، وكنت تقيم الدليل تلو الدليل على نبل القائل وشرف القول: رب أخ لك لم تلده أمك!

وأذكر سراءنا بقدر ما أذكر ضراءنا، أذكر جوعنا بقدر ما أذكر نعمة الكأس. أذكر الفرح الغامر ممهولا بالحزن المقيم وأذكر شهامة الروح وسمو الفكر وطهارة القلب يوم ذهبنا الى صديقنا واستاذنا الكبير اميل توما في مكتب الاتحاد القديم ليستقبلنا وكأن شيئا لم يكن، وليدعونا الى العمل معه في الخندق الواحد والأخير بعد الخلاف العائلي العابر بين الوطنيين الشيوعيين والوطنيين الناصريين، ذلك الخلاف الذي حسمه التاريخ وحسمه حبيبنا وبطلنا جمال عبد الناصر يوم قال: لا اشتراكية الا الاشتراكية العلمية، وحسمه اخوتنا ورفاقنا حراس قلاع الحرية وحملة الراية الأرجوانية المباركة رآية الثورة والاشتراكية العلمية.

وعملنا معا الى ان تقمصت ابن زريق البغدادي على فارق جوهري، فاذا كان، قد استودع الله قمراً له في بغداد جادا في طلب

قوت العيال، فقد استودعت انت قمراً لك على سفوح وادي عارة جادا في طلب قوت القلب الجياش بالسخط والروح التي استروت فما ارتوت، فتنكبت عن غيث جادها على شح الى غيث في الحلم قالت فيه رسائلك الأخيرة إنه سراب في سراب، وتنكبت عن السراب لكن الى أين ؟ الى أين يا أخي وحبيبي ورفيقي؟

كان لك أن تعود وكل غائب الى اياب، وأية أوبة كانت تلك يا أخي وحبيبي ورفيقي، أية أوبة كانت تلك؟ ولماذا تشيح العين عن التفاتة القلب كلما جرفتنا سيول الحياة الى وادي عارة الحي؟ لماذا يجهش الروح على مشارف مصمص، حتى كأن مشارف صبرا وشاتيلا وعين الحلوة وبرج البراجنة لا تكفي؟

كان لك أن تعود؟ وها أنت هنا الى جانب مرج ابن عامر الذي خاطبته ذات يوم:

مرج ابن عامر .هل لديك سنابلُ أم فيك من غرس الحروب قنابلُ؟

وانني لأخاطب وادي عارة وأخاطب مرج ابن عامر وأخاطب الكرمل والجليل وأخاطب قلبي هذا المرهَف الثقيل: أعطوني قليلا من القدرة على الاعتراف حتى أفتح رسائل راشد على قلبي وأفتح قلبي على موته وأفتح موته على الحياة كلها،على الحياة كلها والى دهر الداهرين ...آمين..

مهرجان احياء الذكرى العاشره

الناصرة – الجمعة ٨٧/١/٢.